القراءة والإنتاج الدلاليّ في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع

Reading and semantic production in the book of Kalila wa Dimna by Ibn Al-Muqaffa

نعيمة محمد العقريب*

الملخّص

يتناول هذا البحث مختلف الأبعاد الدلاليّة والتداوليّة لكتاب كليلة ودمنة، ويتم تفعيل هذه الدلالات وإنتاجها بفعل القراءة والتلقي؛ إذ تتفاوت مستويات القرّاء انطلاقا من اختلاف مرجعية وثقافة المتلقين وكذلك هدفهم من القراءة؛ واستعان البحث ببعض إجراءات نظرية جمالية التلقي بوصفها اتجاها ما بعد بنوي يقوم على النص المفتوح وتعدد القراءات.

اكتسب كتاب كليلة ودمنة أهمية بالغة وشهرة من خلال القراءة والتلقي؛ مما منح الخلود لهذا العمل الأدبي عبر الزمان، وقد استفتح الحديثُ في هذا البحث عن السياق التداولي للكتاب وإبراز أصوله التاريخية وكيف استطاع ابن المقفع أن يكيّف ترجمته مع ذوق القارئ العربي، ومن ثَمّ التطرّق إلى دور القارئ وأهمية فعل القراءة في إنتاج الدلالات واستخراج المضمرات اعتمادا على الكفاءة التأويلية للقراء وتفاوت مرجعياتهم المعرفية.

وسعى البحث – في الجزء الأخير – إلى إنجاز دراسة تطبيقية مختصرة لقصتين مختارتين من الكتاب؛ إذ تم التركيز على إبراز الطبيعة الاستعارية والرمزية للشخصيات الموظفة في الحكايتين، حيث فرض السياق السياسي على ابن المقفع أن يبني كتابه ظاهريا على أنه إمتاع وتسلية بينما باطنيا يستعمل التلميح والأمثال لنقد جهاز الحكم والسلطة عبر استعمال أقنعة الحيوانات.

الكلمات المفتاحيّة: كليلة ودمنة، ابن المقفع، فعل القراءة، الإنتاج الدلاليّ، حكاية الحيوانات.

Abstract

This research deals with the various semantic and pragmatic dimensions of the book Kalila wa Dimna. These semantics are activated and produced through the act of reading and receiving, as levels of readers vary based on the different reference and culture of the recipients, as well as their goal of reading. The research used some procedures of the aesthetics of reception as a post-structural trend based on open text and multiple readings.

The book of Kalila wa Dimna has gained great importance through the act of reading and receiving, which has granted immortality to this literary work over time. At the beginning of this research we talked about the pragmatic context of the book and highlighted its historical origins alongside with how Ibn Al-Muqaffa adapted his translation in such a way that fits in with the Arabic reader, then we dealt with the role of the reader and the importance of the act of reading in producing connotations and extracting of ambiguities depending on the interpretive competence of the readers and their different cognitive references.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، تاريخ استلام البحث 2021/02/02، تاريخ قبوله 2021/06/29

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

In the end, we tried to complete a brief applied study of two selected stories from the book, where we focused on highlighting the allegorical and symbolic nature of the characters employed in the two stories, as the political context imposed on Ibn al-Muqaffa to build his book outwardly as enjoyment and entertainment, while internally he uses allusions and proverbs to criticize the ruling apparatus and power through the use of animal masks.

Key Words: Kalila Wa Dimna, Ibn Al-Muqaffa, The Act of Reading, Semantic Production, The Tale of Animals

المقدمة

تعد القصص على ألسنة الحيوان جنسًا أدبيًّا شائعًا في تاريخ الآداب العالمية، ومن الصعب جدًّا تحديد نقطة البدء في هذا الجنس، وقد عرف الأدب العربي – بدوره – هذه القصص، ولعل نص " كليلة ودمنة" لابن المقفع هو أشهر من يمثل هذا الجنس في الأدب العربي، حيث نال هذا الكتاب شهرة كبيرة، وتُرجم إلى عدة لغات عالمية، وطبيعة الكتاب تجعله مفتوحًا على القراءات الكثيرة، وإنتاج الدلالات المختلفة رغم تعاقب الأزمان، حيث تم استعمال الاستراتيجية التلميحية في الكتاب عبر إيراد المثل الحجة والإضمار وتقنية الحوار والتوالد والتداخل الحكائي وغيرها من الآليات التي تخدم هذه الاستراتيجية بشكل أو بآخر.

ويحاول هذا البحث إنجاز قراءة دلالية متعمقة لكتاب كليلة ودمنة، حيث تتفاوت مستويات تلقي هذا النص تبعًا لثقافة المتلقين وأهدافهم من القراءة، ويجيب البحث عن جملة من الأسئلة من أبرزها:

- ما طبيعة العلاقة التي تحكم المرسل بالمتلقي والنص؟
- ما الدور الذي يؤديه السياق بمختلف أنواعه (الاجتماعي، الثقافي، السياسي....الخ) في الكشف عن هذه العلاقة، والكشف عن دلالات النص ومقاصده البعيدة؟ وما هو دور القارئ في تفعيل هذه الدلالات وتطويرها؟

يهدف هذا البحث إلى إبراز أهمية التلقي وفعل القراءة في إنتاج الدلالات وتفعيلها في النص الأدبي، ونص كليلة ودمنة من بين النصوص التراثية المهمة التي يعتز بها نثرنا العربي التي ما تزال تحتاج إلى اكتشاف ودراسة، ويمكن في هذا المجال استثمار مختلف مقولات نظرية جمالية التلقي في إنجاز قراءة تأويلية وجمالية لهذا الأثر الفني، الذي كان سببًا – على حد قول كثير من الباحثين– في قتل صاحبه، وكذلك إبراز دور مختلف السياقات في إماطة اللثام وكشف الكثير من خبايا هذا النص الذي يمكننا تشبيهه بالجوهرة المحجوبة عن الأنظار بسبب الغبار، فبمجرد نفض بعض الغبار عنها يبدأ بريقها بالظهور واللمعان، وهذا هو دور القارئ الفعّال والإيجابي الذي ينتج المعنى ويفعّله عبر الغوص في أعماق النصوص واستكناه خباياها.

تناول البحث في البداية السياق التاريخي لكتاب كليلة ودمنة، حيث تم الحديث عن أصوله، وكيف نجح ابن المقفع في نقله إلى اللغة العربية، بل إن بعضهم لم يعدّها ترجمة؛ لأن فيها تحويرًا وكثيرًا من الإضافات بما يتناسب وذوق القارئ العربي، ليتم بعدها إنجاز قراءة موجزة في عنوان الكتاب على أساس أن العنوان هو مفتاح النص، وأول نقطة اتصال بين القارئ والعمل الإبداعي، ولا يقتصر دوره على تحديد هويّة النص أو يعد تكثيفًا له فقط، بل يتعداه إلى خلق أدوار هامة في إيضاح الغموض عبر المقاربة التأويلية للعنوان التي تعتمد على جملة من الافتراضات والتصورات المسبقة، ثم تحدثنا عن السياق العربي لكتاب كليلة ودمنة حيث تركت الثقافة العربية الإسلامية ملامحها

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

وبصماتها– بشكل واضح – على الكتاب، وأيّ قارئ متفحص يستطيع أن يتبيّن هذا الأمر، حيث استعمل عبد الله بن المقفع أسلوبًا عباسيًّا مولدًا لاءم فيه بين حاجات عصره الثقافية ومقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية.

أما في الجزء التطبيقي حاول البحث إبراز أهمية القارئ، وفعل القراءة في بناء المعنى وإنتاج الدلالة من خلال الشراكة بين النص والقارئ وتعاونهما في استخراج مقاصد النص، بمراعاة السياق السوسيوثقافي العام الذي ينبثق منه هذا النّص، فلا يقتصر الأمر على الاهتمام بالبنية النصية فقط، بل لابدّ من الاعتناء بظروف إنتاج النص وظروف استهلاكه، فيكون نسقًا مفتوحًا، متعدد الدلالات ومتعدد القراءات بتعدد السياقات واختلافها، وقد قمنا بدراسة نموذجين من الكتاب هما: حكاية الأسد وابن آوى، وحكاية السائح والصائغ، حيث استخرجنا الشخصيات الاستعارية في الحكايتين مع إبراز مختلف أبعادها الرمزية، نذكر من ذلك مثلًا إسناد الفعل والحدث إلى الحيوانات عبر تمثيلية حكائية، وتوظيف المقصدية التي تتجلى في اختيار تصنيفي للأفعال حسب الحيوانات.

وخلص البحث إلى جملة من النتائج، لعل من أهمها هو أهمية هذا التحاور والجدال الذي يكون بين النص والقارئ؛ لأنه يمنح النص حيويته فيتجاوز القارئ المتواليات اللفظية إلى محاولة قراءة الفراغات والبياضات، التي يهيّئها النص الإبداعي، ويعد كتاب كليلة ودمنة نصًّا إبداعيًّا بامتياز، والقراءة المتجددة هي التي خلدته فلكل عصر قراءته الخاصة التي تتم بالاعتماد على المخزون الثقافي والمعرفي للمتلقين .

ولعل من أهم سمات كتاب كليلة ودمنة هو توظيفه للاستراتيجية التلميحية باستعمال أقنعة الحيوانات، وهو أمر استدعته ظروف وسياق تاريخي معيّن، بالإضافة إلى أن الكتاب له مقاصد يسعى إلى تحقيقها، أبرزها هو إصلاح جهاز الحكم، وتعتمد هذه المقاصد في استخراجها على كفاءة المرسل التداولية والتأويلية .

قراءة في عنوان الكتاب

يُعدّ العنوان مفتاحًا إجرائيًّا مهمًّا في التعامل مع النص، في بعديه الدلالي والرمزي، حيث يستطيع الدارس بتحليل البنية التركيبية والدلالية للعنوان أن يلقي الضوء على النص من الداخل، وقد أولى الكثير من النّقاد أهمية كبرى للعنونة، وكل ما يدخل في إطار العتبات النصية: (عناوين، عناوين فرعية، تقديمات، هوامش، تصديرات، صور...إلخ) التي تدخل في علاقات جدلية عميقة مع النص، وتفعّل من دائرة التلقي الإيجابي له، ويعد الناقد الفرنسي جيرار جينيت Genette. G من أبرز الذين كتبوا دراسات مهمة ومفصّلة في هذا المجال، لعل أهمها كتابيه: (طروس palimpsestes) و(عتبات seuils).

ونتيجة لما سبق؛ عمل البحث مبدئيًّا على إبراز بعض الأبعاد الدلالية لنص ابن المقفع، إذ يحمل عنوان الكتاب اسمًا لحيوانين من فصيلة بنات آوى، فهو عبارة عن حكايات خرافية تسرد على لسان الحيوانات، وقد تم ربط العنوان بحرف العطف "الواو": (كليلة و دمنة)، يرمز أحدهما إلى الخير، والآخر إلى الشر، فتم تقديم الإيجابي (كليلة) على السلبي (دمنة)؛ أي الخير على الشر، فكأنه أراد أن يبيّن أن الأصل في الإنسان الخير وليس الشر، ويدعم هذا الرأي أن كل الحكايات المتضمنة في هذا النص تمثّل صراعًا قائمًا بين الخير والشر– بمختلف أشكالهما– التي نتج عنها العديد من الثنائيات الضدية في السياقات السردية للأمثال نذكر منها : العدل/ الظلم، الحاكم / المحكوم، الحق /الباطل، القوي / الضعيف....إلخ، كما تعد كل من شخصيتي كليلة ودمنة عنصرين أساسيين في باب الأسد والثور.

واستعان كتاب كليلة ودمنة بحيوانات حيث وردت مجموعة من القصص على ألسنتها، وفي حقيقة الأمر فإن هذه الحيوانات هي عبارة عن رموز للبشر وسماتهم، فيسمح إنطاق الحيوانات بخلق مجال للمزج بين اللهو والجد والحكمة،

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

وتعد هذه الرمزية وسيلة للنقد والتغيير، وهو نقد موجّه إلى المجتمع بكل فئاته، حيث يبرز الكتاب العيوب البشرية كالحيلة والخديعة والمكر والكذب والخيانة والغش...إلخ، فالحيوانات رموز لأنماط من البشر تبرز كل ما يتميز به الإنسان من فضائل ورذائل في سياق طريف من الحكايات .

ولما أعطى ابن المقفع دورًا بشريًّا للحيوان وسّع مجال الحرية التعبيرية، وأطلق العنان للخيال، كما أنه غالبًا ما كان ينسى الرموز، ويفصّل في الحديث عن المرموز إليهم، بحيث تنطمس أدوار الرموز في الحكاية [1]

السياق العربي لكتاب كليلة ودمنة

لقد تركت الثقافة العربية الإسلامية ملامحها – بشكل واضح– على كتاب كليلة ودمنة، مع أنه يرتد في أصوله إلى الثقافتين الفارسية والهندية، بل لقد شاع الكتاب، وذاع بين الناس بفضل الترجمة العربية، وعلى العموم فرغم أن الكتاب الهندي "بنج تترا" هو أصل لكتاب كليلة ودمنة إلا إن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفيةح لأنه لم يعتمد على النص الهندي الأصلي، بل يبدو أنه اعتمد على الترجمة الفارسية للنص الهندي، وهذا أمر محتمل جدًّا.

ونلاحظ بروز أغراض سياسية في الكتاب، غير أن طابع النقد فيه غير صريح، فهو يهدف إلى تأسيس دولة على أسس عقلية، ويقوم بشنّ حملة عنيفة على الطغاة، تمثل صدًى لما كان يقع من الاضطرابات السياسية والعقلية والدينية في تلك الفترة التاريخية، وقد استقى ابن المقفع أسلوبه الكتابي من صميم العربية غير أنه مزجه بعناصر أعجمية، مما طبع إنتاجه بطابع بلاغة العرب، وجعل إنتاجه النثري متميزًا، حيث استعمل أسلوبًا عباسيًّا مولدًا لاءم فيه بين حاجات عصره الثقافية، ومقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية.

ويرى الباحث أحمد أمين أن عبد الله بن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية، بل أضاف وعدّل بما يتوافق والذوق العربي في العصر العباسي، كما يظن أنه أضاف أبوابًا من الكتاب، مثل: باب الفحص عن أمر دمنة الذي تظهر فيه نفحة إسلامية، ويبدو أن هناك جملة من الأسباب دفعت ابن المقفع لترجمة الكتاب، حيث يقول أحمد أمين بهذا الصدد: «فلعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه المنصور بأكثر مما واجهه به في رسالة الصحابة، وقد مزج نقده بكثير من المدح للخليفة والثناء عليه، ونسب أكثر الشدة التي يراها إلى غيره، ولكن هذا لم يُشف غليله، فرأى أن أسلم طريقة أن يترجم (كليلة ودمنة)، ويزيد فيه؛ ليعمل الكتاب في الخلفاء والرعية ما فعله في الهند وفارس» [2]

ونستطيع القول – في الحقيقة– إنّ كتاب كليلة ودمنة هو أول كتاب مدوّن في النثر الفني عند العرب، ينطوي على موضوع لم يكن شائعًا ومعروفًا في الأدب العربي؛ ألا وهو الحكاية الخرافية على ألسنة الحيوانات، وحاول ابن المقفع أن يكيّف فن الحكايات بما يتوافق وذوق المتلقي العربي ويتفق مع عقيدته، حيث إنه مثلًا ابتعد

عن الحديث عن الطوائف الدينية وطبقات المجتمع، وقد امتاز بالسلاسة وقوة المنطق، حيث استطاع أن يطوّع اللغة العربية؛ لتستوعب الأفكار العميقة، والمعاني الدقيقة، فأغنى بذلك حركة التأليف العربية في مجال النثر [3]

استفاد فيما بعد الأدباء العرب من الكتاب، وحاولوا أن ينسجوا حكايات على ألسنة الحيوانات على منواله، كما فعل مثلًا سهل بن هارون في كتابه (النمر والثعلب)، فقد ترك ابن المقفع أثرًا بارزًا في سياق النثر العربي، وأصبح ظاهرة

---

[1] ينظر: هلال محمد غنيمي، الأدب المقارن، ، القاهرة، ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1964 ص 189_ 190

[2] أمين أحمد، ضحى الإسلام ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة 2012، ص123

[3] ينظر: أحمد محمد علي، ملامح الثقافة العربية الإسلامية في كتاب كليلة ودمنة، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 3، المجلد 80، دمشق، سوريا 2005، ص 567

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

مميزة حيث يقول عنه بطرس البستاني: «لم تقم ميزة ابن المقفع إلا على كتابه الخالد (كليلة ودمنة) ففي هذا الكتاب يتجلى أسلوبه البديع الذي رفع به مستوى النثر العربي إلى أعلى درجات الفن وأشرفها» [4]

دور القارئ وأهميّة فعل القراءة في كتاب "كليلة ودمنة"

انتبه بعض النقاد البنيويين الجدد من أمثال امبرتو إيكو وجوليا كرستيفا ورولان بارت وغيرهم إلى أهمية نشاط القراءة وتفعيل دور القارئ في العملية النقدية الإنتاجية للنص الأدبي، بالنظر إلى سلطة النص التي فرضت هيمنتها النقدية بشكل مبالغ فيه تأثرًا بالبنيوية اللسانية؛ ممّا جعل النص دائرة مغلقة ومعزولة. وقد اشتهر الناقد الفرنسي رولان بارت بمقولة "قتل المؤلف"، حيث رفض فكرة أن المبدع هو منبع المعنى في النص وأبدى اهتمامًا بالقارئ؛ ما غيّر تلك النظرة التي كانت تعتبر العمل الأدبي ابنًا للمؤلف ومعبّرًا عن فلسفته وشعوره، فالكتابة حسب بارت هي لعب وتفنن، ولا يمكن للقارئ من خلال اللغة أن يمسك بحقيقة ثابتة في النص الأدبي، فهو مفتوح على عدة قراءات واحتمالات دلالية، لأنه صدى لكتابات سابقة وإنتاج أدبي معقد.

وهذا الأمر، جعل بارت يركز على المتعة الحاصلة من النص التي يعدّها أهم بكثير من مجرد المعنى الذي يمكن أن يستشف منه، ولهذا نجده يفرّق بين نص اللذة التقليدي الذي لا يقطع صلته بالثقافة، ومرتبط بممارسة مريحة للقراءة، وبين نص المتعة الحداثي الذي يهز القاعدة التاريخية والثقافية والسيكولوجية للقارئ ويزعزع أذواقه، بل ويؤزّم علاقته باللغة أيضًا [5]

إن الوجود الأدبي بالنسبة إلى بارت لا يوجد في المدلول بل في الدلالة، حيث يستخدم بارت مفهوم العلامة كما جاء بها دي سوسور؛ لتصبح هذه العلامة دالًا بدورها لمدلول آخر، وهكذا تصبح مدلولات النص هي دوال لمدلولات جديدة عبر ميكانيزم لا ينتهي، فيصبح النص ملتقى لمجموعة من الشبكات الدالة اللامحدودة عبر التناص، واللغة هي التي تتكلم في الكتابة، وليس المؤلف « فميلاد القارئ ثمنه موت المؤلف» [6]، حيث تصبح القراءة إبداعًا عنده، وليس استهلاكًا، فحين تقرأ العمل الأدبي أنت تعيد كتابته، والقارئ وهو يعيد خلق النص، يقوم حتمًا بتشكيل ذاته .

ولعل من أبرز النظريات التي جسدت بقوة الانتقال الفعلي من سلطة النص إلى سلطة القارئ، وتحدثت عن دور القارئ في العملية الإبداعية وأفردت له حيّزًا مهمًّا، ما يعرف بنظرية جمالية التلقي التي ظهرت في ألمانيا بجامعة كونستانس في ستينيات القرن الماضي، ويعد الدارسان الألمانيان فولفغانغ إيزر وهانس روبرت ياوس أبرز من يمثل هذا الاتجاه.

لقد تأثّر أصحاب هذا الاتجاه بالفلسفة الفينومينولوجية أو الظواهرية التي جاءت ردًّا على الفلسفة العقلية التي تنشد الحقيقة المطلقة، حيث يميّز أصحاب الاتجاه الفينومينولوجي بين العلوم الروحية– الإنسانية والعلوم الطبيعية؛ لأن هناك خصوصية للظاهرة الإنسانية، فلا توجد موضوعية مطلقة في مجال العلوم الإنسانية سواءً أكان ذلك في التاريخ أم في الأدب...إلخ، فالحقيقة تبقى نسبية، ولا تكون إلا بانخراط الإنسان في علاقات حميمية مع الأشياء والموضوعات، وقد ارتبط الاتجاه الفينومينولوجي بالفيلسوف الألماني إدموند هوسرل الذي اهتم كثيرًا بمسألة الموضوعية في العلوم الإنسانية[7]

---

[4] البستاني بطرس ، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار مارون عبود، بيروت 1979، ص 157

[5] ينظر: بارط رولان، لذة النص، ترجمة: صفا فؤاد وسبحان الحسين، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/ المغرب 1988، ص22

[6] جوف فانسان، الأدب عند رولان بارت، ترجمة: بوعلي عبد الرحمن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية/ سوريا 2004، ص 116

[7] Christoff Daniel ; Husserl ou le retoure aux choses, Editions Seghers, Pris 1966 ; P5

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

إذن؛ عملت نظرية التلقي على ردّ الاعتبار للقارئ الذي أهملته الدراسات السابقة التاريخية والوضعية والماركسية والشكلانية؛ لأنها ترى أن ما يضمن استمرارية الأعمال الإبداعية هو استقبالها من القراء، وقراءتها كل مرة من جديد على ضوء معطيات جديدة، وهذا ما أبرزه هانس روبرت ياوس أحد أقطاب هذه المدرسة في مؤلفه: "من أجل جمالية للاستقبال"، حيث يعيد تأسيس تاريخ الأدب مراعيًا المبدع والمتلقي والنص؛ لأن تاريخية الأدب تكمن أيضًا في الأثر الذي تحدثه من خلال تفعيل القارئ للنص [8]

وبدوره أفرد إيزر –القطب الآخر في نظرية التلقي– اهتمامًا كبيرًا للقارئ في نظريته المعروفة باسم "نظرية التأثير والاتصال" التي يرى فيها أن المعنى يتشكّل أثناء عملية الاستقبال ذاتها، وليس بصورة قبلية، حيث هناك تأثير متبادل بين النص والقارئ، فيُحدث النص أثرًا جماليًّا، يحرّك قدرات القارئ على التمثّل والاستيعاب؛ مما يجعله مفتوحًا على قراءات متعددة ومختلفة دون أن يقطع القارئ الصلة مع الأبنية النصية، فتبقى عملية القراءة موجهة بحسب ما هو موجود في النص، بينما تهتم نظرية الاستقبال بالأحكام التاريخية للقارئ عبر سلسلة القراءات المتتالية.

يرى إيزر القراءة عملية جدلية تتم بين القارئ والنص؛ لأنها تسير في اتجاهين متبادلين، ومن خلال هذا التحاور والجدال يستمد النص الأدبي حيويته، فيتجاوز القارئ المتواليات اللفظية إلى محاولة قراءة الفراغات والبياضات التي يهيّئها النص الإبداعي[9]

إذن؛ فعل القراءة عبارة عن بناء للمعنى وإنتاج للدلالة من خلال الشراكة بين النص والقارئ وتعاونهما، فيتأتى الاشتغال الفعلي للنص الأدبي من الترابط التفاعلي الكبير والمؤثر بين ثلاثة أطراف، هي: المبدع / النّص/ القارئ، فلم يعد المتلقي أو القارئ في عملية القراءة مجرد مستهلك فقط، بل يسهم – بشكل كبير – في إنتاج الدلالة النّصية، حيث العلاقة بين الكتابة والقراءة «ليست علاقة إرسال واستقبال أو علاقة إنتاج واستهلاك، وإنما هي علاقة تشكّلات وفق منطق خاص، هو منطق السنن النّصي الذي لا يلزم القراءة باتّخاذ وجهة معيّنة، وإنّما يبني ملابسات دلالية تعطيها حق المبادرة والمثابرة، وتسمح لها باقتحام منطقة الإنتاج؛ لإعادة ترتيب أنظمة الكتابة وتشغيلها؛ لصنع معنى النص أو أحد معانيه»[10] ينظر إلى سجّل النص مثل الأعراف والقيم الاجتماعية أو الثقافية...إلخ أو بصفة عامة السياق السوسيوثقافي العام الذي ينبثق منه النّص، حيث يتأثر المبدع بجملة من العوامل التي تم نقلها عبر نسقية النص، فالسياق هو «مجموعة شائكة من المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي، فهو مجمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة» [11]

لقد أولت الدراسات النّقدية الحديثة أهمية كبيرة للقراءة والتلقي، حيث أصبح للقارئ ولفعل القراءة دور تأثيري مهم وفعّال، سواءً أكان ذلك في إنتاج الأدب أم على مستوى تأويل مختلف النصوص الإبداعية، فالظاهرة الأدبية ليست النص فقط، بل هي أيضًا القارئ وجملة ردود أفعاله الممكنة حول النص ومدى تجاوبه وانفعاله معه، حيث إنّ النّص الأدبي يظل راكدًا في حالة خمول وسكون حتى يأتي القارئ المتميّز الذي ينفث فيه الحياة عن طريق القراءة

---

[8] Jaus Hans Robert ; Pour une esthétique de la réception ;trad De l'allemand par Claude Maillard ; Editions Gallimard ; Paris 1978 ; P 40

[9] Iser Wolfgang ; L'acte de lecteur, théorie de l'effet esthétique ; trad de l'allemand par Evelyne Szncer, édition P .Mardaga ; Bruxelles 1985, P 31

[10] خرماش محمد، فعل القراءة وإشكالية التلقي، مجلة علامات، العدد 10، السنة 1998(موقع سعيد بنكراد تم الإطلاع بتاريخ : 12 ماي 2020 على الساعة 15:30 http : // saidbengrad.free.fr/al/n10

[11] Jean Dubois, Dictionnaire de linguistique ; Larousse, paris 1973, p 120 – 121.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

الفعّالة، ويبثّ فيه الاستمرارية الحركية والتجدد. ومن هنا يتبين لنا أن القارئ طرف فاعل وفعّال في العملية الاتصالية اللّغوية؛ لأن الرّسالة دائمًا تتطلب متلقيًا.

فلا يقتصر الأمر على الاهتمام فقط على البنية النصية، بل لابدّ من الاعتناء بظروف إنتاج النص وظروف استهلاكه، فيكون نسقًا مفتوحًا متعدد الدلالات، ومتعدد القراءات بتعدد السياقات واختلافها، ولهذا فإن الأمر يحتاج إلى الوقوف على مقاصد النص التي «لا تظهر في شاكلة واحدة وإنما في كيفيات مختلفة وراءها مقصدية، ومراعاة مقصدية المخاطب والظرف التي يروج فيها النص، وجنس النص» [12]

وهذا هو الأمر الذي نحاول تطبيقه في قراءة نماذج من قصص كليلة ودمنة من خلال الإجابة عن السؤال التالي: كيف نقرأ كتاب كليلة ودمنة؟

إنّ النّص الأدبي خلية مولّدة لمجموعة من العلاقات والرموز التي لا يمكن الكشف عنها إلا من خلال العلاقات الجدلية القائمة بين هذه الرموز، فيتم تفعيل دور القارئ وبلاغات التأويل من خلال أدوات تحليلية ومنهجية متعددة تعود إلى حقول معرفية مختلفة، يتم محاولة التنسيق بينها؛ لأن الانسجام ليس أمرًا معطى، وإنما يُبنى بمشاركة فعّالة من المتلقي، فيغتني العلم بالنص من خلال هذا التركيب[13]

وتتفاعل بنى ذهنية وبنى نصية وبنى سياقية أثناء عملية الفهم وبناء المعنى، فالنص على رأي أمبرتو إيكو آلة كسولة تتطلب مشاركة فعّالة من القارئ، وتتعلق البنى الذهنية بـ«مجموع المعارف القبلية للمؤوِّل، ومحصَّل تجارب القارئ في قراءة النصوص وتخميناته وحدوسه والجهد المبذول في إيجاد التطابق والانسجام بين المعنى المبني والدلائل النصيّة التي تؤكده» [14]

تعتمد تأويلات النص على مؤهلات القارئ وإمكاناته في فك الشفرات النصية، وتفكيك المعنى من خلال عملية الهدم بناء التي تمارس على بُنى نصية، تتشكل من جملة المكونات اللغوية والتراكيب النحوية والبلاغية التي اقتضاها نظم الكلام وفق مقاصد معينة، حيث تتزاحم المعاني وتتكاثف اعتمادًا على المجاز والاستعارة ومختلف ضروب البيان الأخرى؛ لأن بلاغة النص الشعري تقتضي هذا الأمر، مما يتحتم أخذ البنى السياقية في عين الاعتبار؛ لأنها ترتبط بمقامات الإنتاج وظروفه ومقاصده، مما يسمح بالإلمام بمجمل المعطيات الخارجية للنص التي لها دور فعّال في توجيه الدلالة وبلوغ المعنى[15]

ويمثّل كتاب كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع – حسب رأي العديد من النقاد– البداية الحقيقية للنثر الفني العربي، فصار هذا الكتاب نموذجًا يحتذى به في اللغة والأسلوب، حيث ألّف آخرون على منواله تأثرًا به، مثل: سهل بن هارون وغيره من الكُتّاب، وتنبع أهمية هذا الكتاب من كونه أنه وضع على ألسنة الحيوانات وتعرض للعديد من القضايا المرتبطة بأمور الحكم والحكام والحاشية التي تحيط بالحكام، وكذلك طرق التعامل مع الساسة والملوك الكبار، وقد ترك هذا الكتاب أثرًا بارزًا في الأدب العالمي، حيث ترجم إلى العديد من اللغات العالمية.

---

[12] مفتاح محمد، مجهول البيان، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/المغرب 1990، ص89.

[13] ينظر: بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي – مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر 2013، ص 25/24.

[14] بازي محمد ، نفسه، ص66

[15] ينظر: بازي محمد ، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات ، ط1،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010، ص49.

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

وضع الكتاب في الأصل لإرشاد الحكّام وتنبيههم إلى بعض السلوكات والأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلوا بها في سياستهم مع الرعية، بوصفهم مسؤولين عنها، وعدم الاعتماد على بطانة السوء نظرًا لأهمية المستشارين، ومدى تأثيرهم على آراء الحاكم وتوجيه سياسته العامة، فقد وضع الكتاب في أصله الهندي بناءً على طلب الملك دبشليم من بيدبا، ولم يختر الملك الحكيم بيدبا اعتباطًا، وإنما نتيجة لمعرفته وإلمامه بمدى استحقاقه وجدارته، وخبرته الكبيرة ومعرفته الواسعة، حيث يقول الملك دبشليم لبيدبا: «يا بيدبا، لم تزل موصوفًا بحسن الرأي وطاعة الملوك في أمورهم، وقد اختبرت منك ذلك، واخترت أن تضع هذا الكتاب، وتُعمل فيه فكرك، وتجهد فيه نفسك؛ بغاية ما تجد إليه السبيل، وليكن مشتملًا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة »[16]

فانصرف الحكيم بيدبا، ورتّب الكتاب على خمسة عشر بابًا «وضمّن تلك الأبواب كتابًا واحدًا سماه "كليلة ودمنة"، ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير؛ ليكون ظاهره لهوًا للعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصّة، وضمنّه أيضًا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه آخرته وأولاه، ويحضّه على حسن طاعته للملوك، ويجنّبه ما يكون مجانبته خيرًا له»[17]

يَقصِدُ كتاب كليلة ودمنة إلى تعليم الملوك كيف يحكمون ويسيّرون، ولكنه يقدم الآراء والحكم على لسان الحيوانات، حيث تم استثمار صور ممتعة تجذب إليها العامة، ويتميز الكتاب بجملة من السمات منها:

- ✓ تبدأ طريقة التقديم في الكتاب بالتساؤل
- ✓ التداخل القصصي: تحوي القصة الرئيسية قصصًا متعددة، أي إن هناك مجموعة من القصص المتوالدة عن قصة رئيسية، مما سمح بتفرع عدد هائل من القصص، وهي الطريقة نفسها التي نجدها في حكايات ألف ليلة وليلة التي تتميز بسمة التداخل وتوظيف القصص المتوالدة.

يؤدي توالد الحكايات إلى دخول شخصيات جديدة إلى مسرح الأحداث، ويتم الحكي في كليلة ودمنة من أجل مقابل يتحدد منذ البداية في الحكاية – الإطار وهو الذي يحفّز الحكي ويولّده، فحكاية كليلة ودمنة كمحكي مؤطر أتى استجابة لرغبة الملك في تخليد ذكره التي نتعرف عليها منذ الحكاية – الإطار وبالضبط عند الحديث عن دواعي التأليف.

ولعل من أهم خصائص نص " كليلة ودمنة" أنه نص إبداعي حيوي يخلق قرّاء جددًا في كل حقبة زمنية، ولا تأتي هذه القراءات من فراغ، بل هي دائمًا تعتمد على مخزون ثقافي وفكري مرجعي، يكتسبه القارئ من خلال النصوص السابقة، بالإضافة إلى جملة من المعايير الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي يحملها القارئ كمعارف ضرورية أثناء القراءة[18]

الشخصيات الاستعارية في كتاب كليلة ودمنة

يتمثّل الحكي الخرافي في كليلة ودمنة بعض صفات وأفعال الحيوانات التي يجد لها امتدادًا في نفس البشر، فتعكس الحيوانات تصنيفًا اجتماعيًّا ووظيفيًّا، كلّ منها حسب الصفة التي تميزها أو حسب درجات القوة والضعف، وأيضًا يستعير الكتاب مجموعة من الصفات البشرية، ويمنحها للحيوانات، حيث يرمز من خلال هذه الحيوانات إلى بني البشر مما يجعل العلامتين (الإنسان/ الحيوانات) تتناوبان على خانتي المشبه والمشبه به، فتحاول الاستعارة أن

[16] ابن المقفع (روزبه بن داذويه) عبد الله 142هـ، كليلة ودمنة، ط1، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر، 1997، ص 23/22.

[17] ابن المقفع ، المصدر نفسه، ص 24.

[18] ينظر : آيت أوشان علي، الأدب والتواصل، ط1، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، ، الرباط 2009، ص 48/47.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

تساوي وتطابق بين العلامتين: حيوان / إنسان؛ لأن هذه الحيوانات تتصرف تمامًا مثلما يتصرف الإنسان، فوقع استعارة الحيوان، والقصد منها الرمز للإنسان بما يتلاءم وطبيعة الحيوانات التي يرمز بها.

إنّ كتاب كليلة ودمنة نص أدبي فيه تعبير عن رؤية معينة للواقع الإنساني وسلوكياته، وقد تم إنتاج هذا النص في ظل واقع يعيشه المبدع وينقل رغباته وميوله ورؤاه عن ذلك العالم وإيديولوجيته، ولهذا فإن قراءة وتأويل هذا الأثر يشمل أيضًا المنتوج الثقافي والحوار الفعّال بين النص والقارئ، ويبقى النص متعدد المعنى؛ بسبب مختلف أشكال الخرق التي يعرفها، وكل قارئ يفكك تركيبته بشكل خاص به، فهو مفتوح على أكثر من معنى وقراءة، كما أنه يتوفر على قيم يشترك فيها الناس في كل زمان ومكان، مثل: (الحرية، العدالة، الحب، الاحترام...إلخ) .

لقد تميزت الفترة التي عاش فيها عبد الله بن المقفع بجملة من الصراعات السياسية بين الأمويين والعباسيين، وهو الصراع الذي أدّى فيما بعد إلى قيام الدولة العباسية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تميز هذا العصر بالنشاط العلمي والأدبي في مختلف مجالات الثقافة والعلم، ونتيجة لهذه الصراعات الكبيرة كان لا بد من أخذ الحذر والتروي في إبداء بعض الآراء، ولكن ابن المقفع تبنى – في بعض الأحيان– بعض المواقف التي ألّبت عليه الكثير من رجال الحكم وحاشية الخليفة.

تمكّن ابن المقفع من خلال ثقافته واحتكاكه بالعرب من فهم أذواقهم ورغباتهم التي حاول أن يضمّنها في كتابه، دون أن يغفل عن الهدف غير المباشر من الكتاب، ألا وهو إسداء النصح للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وحثه على الانتباه من حاشيته والابتعاد عن بطانة السوء .

إذن؛ أراد عبد الله بن المقفع تحقيق جملة من الأهداف من خلال تعريبه لكتاب "كليلة ودمنة"، نذكر منها:

- إرضاء القارئ العربي، وتنبيهه إلى وجود كتابات نثرية جميلة، وعدم الانغلاق على الشعر فقط، وتجلى هذا الأمر في استعمال أسلوب نثري فني، حاول فيه ابن المقفع مراعاة الذائقة العربية، فوظف السجع والجناس والأمثال...إلخ.
- تنبيه الخليفة العباسي إلى بعض الأمور المرتبطة بأمور الحكم وسياسة الرعية؛ لأن ابن المقفع كان عرضة للاتهام بالزندقة من الحجّاب والوزراء، كما كان يعمل على نشر بعض الآراء السياسية حول الحكم والحكّام.

ويقول ابن المقفع عن كتابه موجها كلامه للقارئ: «من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهرًا وباطنًا لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه، كما لو أن رجلًا قُدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره»[19] . فالقارئ عليه أن يغوص في بطن النص، ولا يكتفي بالمعاني الجاهزة، بل يعمل فكره ومعرفته وتجاربه السابقة؛ لاكتشاف طبقات النص ومعانيه العميقة التي تحتاج إلى قارئ متمرسٍ خبيرٍ؛ لأن «الكلمات التي تؤلف النص تحمل من المعاني والشحنات ما يجعلها حبلى بمعان على المتلقي – في ظل مخزونه الثقافي والمعرفي– وفي ظل تفاعله مع سياقات النص أن يكتشفها ويبلورها» [20]

تعتبر القراءة فعلا مركّبًا ومعقدًا، فعندما نقرأ نصًّا ما لا نمرر أعيننا فقط على السطور، كما أننا لا نكتفي بإعادة تلقي الخطاب بشكل سلبي اعتقادًا منا بأن معنى النص قد صيغ نهائيًّا وحدّد، بل إنّ القراءة هي فعل خلّاق تستكشف العمل الإبداعي، وكذلك تناصاته مع نصوص أخرى، وانفتاحاته على خطابات متعددة ومتنوعة، مما يجعل الدلالات تتجاوز مقاصد النص ومقاصد المبدع نفسه، فيصبح القارئ أو المتلقي شريكًا في إنتاج المعنى والدلالة،

---

[19] ابن المقفع، عبد الله، كليلة ودمنة، مراجعة وتعليق: عرفان مطرجي، ط1 دار الفكر، لبنان 2005، ص58

[20] بوبعيو بوجمعة ، آليات التأويل وتعددية القراءة، مقاربة نظرية نقدية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق 2009، ص 74

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

وهذا ما نستشفه في حادثة تحكي بأن الشاعر أبا نواس مر يوما بحلقة درس، يشرحون فيها شيئًا من شعره، فوصل، وقد سمع الشيخ يفسّر بيتًا لأبي نواس، وهو قوله:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر

فقال الشيخ لطلبته شارحًا البيت: إنّ الشاعر أبصر الخمر، فانتشت حاسة التبصر، والأمر نفسه حدث مع حاستي الشم والتذوق واللمس، وبهذا بقيت حاسة السمع محرومة من النشوة، فقال الشاعر"وقل لي هي الخمر".

وبهذا القول انضمت حاسة السمع إلى بقية الحواس المنتشية، وقد أعجب أبو نواس بهذا التفسير، وقبّل رأس الشيخ، وقال له: بأبي وأمي أنت، فهمت من شعري ما لم أفهم [21]

إنّ شخصيات القصص في كتاب كليلة ودمنة هي شخصيات ذات بعد استعاري ورمزي، والشخصية الحكائية كما يرى الناقد فيليب هامون لا تحيل بالضرورة على كائن حي له وجود في الواقع، بل هي علامة [22] ويبقى تأويل العلامة أمرًا نسبيًّا يختلف باختلاف المؤولين والسياق ...إلخ.

اخترنا نموذجين من كتاب كليلة ودمنة للتحليل، وقد وقع اختيارنا على قصتين من الباب الخامس في الكتاب ألا وهما : حكاية الأسد وابن آوى وحكاية السائح والصائغ.

حكاية الأسد وابن آوى :

يُلاحظ أن اختيار موضوع القص أو محوره في كتاب "كليلة ودمنة" يرتبط بإرادة وتوجيه الملك دبلشم للفيلسوف بيدبا، حيث نجد في مستهل الحكاية ما يلي:

«قال دبلشم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة من غير ذنب »[23]

إن الخطاب في المتن القصصي يتم تحت سلطة الملك وبنية الكتاب تعكس الأمر الملكي، حيث إن الملك هو الذي يعيّن الموضوع، فيبدأ بيدبا في سرد الحكايات، وهدفه التعليم والوعظ، فتقتضي الرواية وجود علاقة بين راو ومستمع، كما يتم عرض جُملة من الأسئلة، مثل: من هو المتكلم في كتاب كليلة ودمنة؟ ومن هو المتلقي الذي يستهدفه ابن المقفع؟ وماهو الإطار الزماني والمكاني للنص؟ وغيرها من الأسئلة، وهي إحالات مرجعية تساعد القارئ في عملية تأويل النص وفهم مختلف مقاصده؛ لأنه سيضعها في سياق معين من أجل أن يكون لديها معنى.

نلحظ أن ابن المقفع اعتمد على أسماء الحيوانات عناصر أساسية في وضع عناوينه الداخلية، طبعًا بالإضافة إلى العنوان الكبير الذي وضعه للكتاب (باب الأسد والثور، باب البوم والغربان، باب القرد والغيلم...)

يقول ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة متحدثًا عن أصناف الناس الذين يقرؤون كتابه: «وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض: أحدهما ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة، من مسارعة أهل الهزل من الشباب إلى قراءته، فتستمال به قلوبهم... والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان؛ ليكون أنسًا لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنّزهة في تلك الصور، والثالث أن يكون على هذه

[21] ينظر : القيرواني، أبي علي الحسن بن رشيق(ت 456ه)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، ط5 دار الجيل، ، بيروت 1981، ج2ص93

[22] ينظر : هامون فيليب، سيميولوجيا الشخصيات، ترجمة: بنكراد سعيد، دار الكلام، الرباط 1990، ص33

[23] ابن المقفع، كليلة ودمنة، ص 223.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

الصفة، فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك استنساخه ولا يبطل... والرابع وهو الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة»[24]

إذن؛ يحدد ابن المقفع أنواعًا من المتلقين للكتاب انطلاقًا من الخلفية المعرفية لكل قارئ وهدفه من القراءة:

1. القارىء العادي: ويجعله ابن المقفع من الشبان المحبين للهو والهزل، والأطفال الصغار الذين يجذبهم المثل الخرافي في الحكايات والحوار بين الحيوانات .
2. القارئ العارف (المتذوق): يمتلك هذا القارئ خبرة، يستطيع من خلالها إعادة إنتاج النص، ويقصد به ابن المقفع الحُكّام، فالكتاب موجّه أولًا إلى الحُكّام، ونلحظ هذا من خلال حوار الملك دبلشم والفيلسوف بيدبا، وكل مواضيع الكتاب موجهة كرسائل إلى الحكام تحت ستار ألسنة الحيوانات. إذن؛ الحاكم هو المتلقي المستهدف عند ابن المقفع، طبعاً هذا الأمر مرتبط بالسياق التاريخي والفترة الزمنية التي عاش فيها ابن المقفع.
3. القارئ الناقد (النموذجي): يمارس هذا القارئ قراءة منتجة للنص، ويعيد صياغته من جديد بشكل جديد، وهذا الأمر هو الغاية الكبرى لابن المقفع، حيث يقول: «والغرض الرابع وهو الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة»[25]

واستهداف الفيلسوف بوصفه متلقيًا نموذجيًا عند ابن المقفع، تظهره علامات في النص، نذكر منها: انتشار الحكمة في كتاب كليلة ودمنة، واعتماد الحوارات في النص على حوار الفيلسوف بيدبا، حيث إن الكتاب كله هو عبارة عن أجوبة للحاكم دبلشم من الفيلسوف بيدبا. وقد صاغ ابن المقفع جملة من الاستراتيجيات أو الإجراءات للتلقي النموذجي التي ينطلق منها القارئ أثناء قراءته للنص منها:

- لا تكون غاية المتلقي التصفح، وإنما معرفة الأغراض
- لابد للمتلقي من إعمال الروية واكتشاف الأغراض، ظاهرًا وباطنًا
- تلمس جواهر معاني النص وإدامة النظر والتأمل دون ضجر
- ينبغي للمتلقي أن يعمل بما علم ويقتدي به

وهكذا نلاحظ أن كل مرسل لا بد أن يستحضر متلقيه الضمني في ذهنه عند إنتاج خطابه؛ لأن القارئ هو المستهدف من أي عمل، ولا قيمة لأي نص دون قراءته، ولهذا القارئ مرجعيات مختلفة تمكنه من تشكيل المعنى، واختلاف هذه المرجعيات وتنوعها يسمح للنص بتعدد القراءات .

وإذا تمحصنا حكاية "الأسد وابن آوى" نجدها تدعو إلى ضرورة تبيّن الأمور والحقائق والتروي، وعدم التسرّع حتى لا يتم الندم فيما بعد، فالملك المسؤول عليه أن يختار الأعوان الحكماء النصحاء، ولن ينتفع بهم إلا بالمودة، فلا يمكن للمسؤول –مهما كانت قوته– أن يضطلع بكل مهامه إلا بمساعدة معاونين ومستشارين، يتميزون بجملة من الخصال، لعل أبرزها النصيحة والعفاف، فلا يكونون طماعين أو وصوليين وانتهازيين.

يتّخذ بيدبا من قصة "الأسد وابن آوى" مثالًا للحاكم والعون المسؤول العفيف، ولكن باقي الحاشية التي تحسّ بأن مصالحها قد تضررت تحيك المكائد للتفريق بينهما والتخلص من المنافس الذي يستأثر باهتمام الملك ورعايته، فيحسون بأنهم فقدوا مكانتهم فيكيدون ويستعملون الحيلة والدهاء، ولولا وجود بعض الحاشية المقرّبة المخلصة التي تنبهه إلى التروّي وأخذ الأمور بحكمة لوقع في المحظور وظلم الآخرين، حيث إنّ أم الأسد نبّهت ابنها الحاكم إلى جملة من الأمور قائلة له: «يا بنيّ عجّلت، وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبّت، والعجلة لا يزال

---

[24] ابن المقفع، كليلة ودمنة، مراجعة وتعليق:عرفان مطرجي، ص67

[25] ابن المقفع، مراجعة وتعليق: عرفان مطرجي، ص67

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

صاحبها يجتني ثمرة الندامة بسبب ضعف الرأي، وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبت من الملوك، فإن المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلّم بالمعلّم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامّة بالملوك، والملوك بالتقوى والتقوى بالعقل، والعقل بالتثبّت والأناة، ورأس الكل الحزم للملك معرفة أصحابه وإنزالهم منازلهم على طبقاتهم[26]

تريد أم الأسد إقناع ابنها بضرورة التروي والتثبّت من الأمور قبل إصدار أي حكم؛ حتى لا يكون فيه ظلم أو تعسّف، ولهذا فهو يبقى في حاجة ماسة إلى المساعدة والمشورة، مثلما يحتاج المتعلّم إلى معلمه والجندي إلى قائده...إلخ. والملك الحازم المسؤول عليه أن يضع كل أصحابه في منازلهم التي يستحقونها، ولن يصل إلى هذا الأمر إلا بالتثبت والعقل.

وتعمل الحيلة والدهاء وتنشط في حكايات كتاب ابن المقفع حين تعوز القوة، فلا حاجة للأسد للحيلة أو الطرق الملتوية؛ لأنه يملك القوة اللازمة التي يستطيع بها تحقيق أموره، لكن هناك حيوانات أخرى مثل حاشية الملك تعوزها القوة اللازمة، فتلجأ إلى الحيلة والمراوغة؛ لتحقيق مصالحها ومآربها، فتفترض الحيلة خطابًا مزدوجًا حتى تحقق نجاحًا[27]

فالأسد أقلّ الحيوانات كلامًا مقارنة بباقي الحيوانات في كتاب كليلة ودمنة؛ لأنه من موقع قوته ومكانته لا يحتاج إلى استعمال وسائل الإقناع والتأثير على الآخرين، بل الحيوانات الأخرى هي التي بحاجة إلى الحجج المقنعة والمؤثرة؛ لتحقيق التسليم بالأمر، إذن؛ فموقع المتلفظ ومكانته هي التي تمنح الخطاب قوة وتأثيرًا أو لا تمنحه، حيث إن ابن آوى لما يكلّم الأسد الذي هو أقوى منه، ولكي يستطيع أن يقنعه؛ فهو بحاجة إلى السرد للإقناع، فيعتمد على الحكاية المثلية التي نجدها تشكّل جوهر كتاب "كليلة و دمنة"، فهذه الحكايات هي حجج واستشهادات لدعم الموقف وتوجيه الرأي وجهة معينة.

حكاية السائح والصائغ

إن حكاية "الصائغ والسائح" ليست معزولة عما سبقها من حكايات ابن المقفع في هذا الكتاب، ولهذا فإن القارئ يضعها أمام باقي الحكايات، وتفترض قراءتها العلم بماضيها؛ لأنه جزء من بنيتها ومعناها، حيث إنها تشبه باقي الحكايات في نمط بنائها وسردها، ولو أنها تسرد أحداثاً جديدة، فتشبه حكاية السائح والصائغ الحكايات السابقة عليها واللاحقة لها في كتاب كليلة ودمنة؛ لأن هناك تشابها في استعمال السرد على لسان الحيوانات وتضمين الحكايات حكمًا وعبرًا، وهناك أيضًا توالدًا للحكايات وتداخلًا كبيرًا بينها، ورغم ذلك لكل حكاية خاصيتها وأيضًا للحكايات نفس الأسلوب اللغوي .

فتتكون الحكمة على ألسنة الحيوانات التي يعمل القارئ الحاذق على تفهمها؛ لأنها ترتبط بالعقل والخبرة على المستوى العميق للحكاية، فالحكمة والعبرة هما أساس السرد فيها، ولا يتحقق المعنى إلا إذا قرئ العمل، فيقحم القارئ فرضياته ومبادراته، ويستحضر معارفه؛ مما يجعل القراءات مختلفة باختلاف القرّاء وأزمنتهم، ولا يكون النص حاضرًا إلا بقدر ما يكون مقروءًا، مما يمنحه أبعادًا وإضاءات جديدة عبر الزمن مع القراءات المتعاقبة، وهو الذي حصل مع كتاب ابن المقفع الذي خلق ردود أفعال عبر الزمن، انبنت من خلالها، تجربة التلقي في هذا العمل الإبداعي الذي عد كتابًا مركزيًّا في الثقافة العربية. .

---

[26] ابن المقفع، السابق، ص229.

[27] انظر: كيليطو عبد الفتاح، من شرفة ابن رشد، ط1، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/ المغرب، 2009، ص 5.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

تفتتح هذه الحكاية بأمر الملك دبشليم للفيلسوف بيدبا بقوله: «فاضرب لي مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه»[28] فيسرد عليه حكاية السائح والصائغ، وبهذا يكون الملك متلقيًا لهذه الحكاية، وأيضًا شتّى القرّاء الذين عاصروا ابن المقفع وغيرهم من القرّاء المتعاقبين، وما يزال الكتاب متاحًا لقرّاء آخرين جدد بتوالي الحقبات الزمنية، وهؤلاء القرّاء هم الذين حققوا بتفاعلهم وإيجابيتهم الإنتاجية الخلود لنص كليلة ودمنة؛ لأنه بقي دائمًا نصًّا متحرّكًا وفاعلًا.

وترمز هذه الحكاية المثلية إلى ضرورة معرفة أين يتم وضع المعروف، فعلى الملوك أن يعرفوا لمن يوجهون معروفهم، فيبتعدون عن اللؤماء الأنذال الذين من طبعهم الغدر والتنكر للإحسان، إذ يقابلون الإحسان بالإساءة، فلا يثمر الخير فيهم أبدًا، فمثلهم كمثل الأرض القاحلة التي لا يرجو منها الفلّاح ثمرًا أو عطاءً، ومما يدل على أن الحكاية هي مجرد تلميح غير مباشر لما يجب أن يكون عليه ولاة الأمر والملوك ما يورده بيدبا تعليقًا على هذه الحكاية في نهايتها قائلًا: «يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره، ولا يصطنعون أحدًا إلا بعد الخبرة بطرائقه والمعرفة بوفائه ومودته وشكره »[29]

إذن يتم استدراج المتلقي (المستمع) من خلال سرد حكاية، فلا يكتفي بالخطاب المباشر، بل لابد من استتباعه بسرد؛ حتى يتم دعم هذا الخطاب ومنحه الحجة الإقناعية اللازمة، فتنتهي كل حكاية من الحكايتين السابقتين بحكمة يستخلصها القارئ من خلال إعمال العقل، وكل الحكايات التي يتضمنّها كتاب كليلة ودمنة مبنية على استخلاص العبر من خلال القصص الاستعارية للحيوانات، وقصدية هذه الحكايات مرتبطة بالنصح والتوجيه غير المباشر للحكام؛ حتى يحسنوا التعامل مع شتّى الأوضاع والحالات، وهذا ما يتجلى بشكل واضح في خاتمة كتاب " كليلة و دمنة"، حيث يقول الفيلسوف بيدبا مخاطبًا الملك دبشليم: «وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور، وشرحت لك جواب ما سألتني عنه منها، فأبلغتك في ذلك غاية نصحي، واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ فطنتي التماسًا لقضاء حقك وحسن النية منك، بإعمال الفكرة والعقل، فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة، مع أنه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له، ولا الناصح أولى بالنصيحة من المنصوح، ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه، فافهم ذلك أيّها الملك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم»[30] ، حيث يبرز في خاتمة الكتاب بشكل خفي غرضه من الكتاب ولمن هو موجه بالدرجة الأولى (الحكام والسلاطين) .

حتى وإن لم يكن ابن المقفع هو مؤلف كتاب كليلة ودمنة، فإنه لم يقم عبثًا بترجمته وإضافة بعض الأبواب إليه، بل ارتبط الأمر بجملة من المقاصد والغايات التي ترتبط بالسياق التاريخي والفترة الزمنية التي عايشها، حيث إن الزمن المرجعي للكتاب يعود إلى العصر العباسي في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وهي فترة تميزت بالظلم والصراع على السلطة بين الأمويين والعباسيين، مما أدى إلى سفك دماء غزيرة، فجاء الكتاب محذّرًا وواعظًا من هذه الانزلاقات الخطيرة التي سوف تؤدي إلى عواقب وخيمة للدولة والرعية .

ونجد كذلك أن الزمن الذي يتحدث عن سبب وضع الكتاب يربطه بفترة قديمة سابقة، عاش فيها الملك دبشليم والفيلسوف البراهمي بيدبا، ومن هنا فابن المقفع هو مرسل ضمني، ويمكن اعتبار قرّاء العصر العباسي كمتلقٍ

[28] بن المقفع، كليلة ودمنة، ص 257.

[29] ابن المقفع، السابق، ص 257

[30] ابن المقفع، السابق، ص 257

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

ضمني، ثم دبشليم متلق مباشر، والفيلسوف بيدبا مرسلًا مباشرًا. ودائمًا يفترض المرسل متلقيه فيعمل على تنظيم خطابه وفق ما يقتضيه المرسل إليه، وهذا ما تفرضه العملية التواصلية التفاعلية بينهما.

وهكذا من خلال انخراط القارئ في نص كليلة ودمنة، وتحقيق علاقات فعلية معه عبر الإصغاء والتساؤل واستحضار التجارب السابقة والمخزون المعرفي؛ يخرج هذا النص إلى الوجود، ويتحقق بتفاعل آفاق القراء الماضية والحاضرة وتشابكها، ومن خلال اختلافات الرؤى يتضح النص، ويتجدد مع كل عملية قراءة؛ لأنه لا وجود لقراءات متطابقة أبدًا؛ نظرًا لاختلاف الوضعيات التاريخية التي يكون عليها القارئ في كل فترة، ويبقى النص فضاء دلاليًّا مفتوحًا على التأويل، ولهذا فإنه لا ينفصل عن المتلقي، ولا يتحقق في الوقت نفسه دون مساهمته وإنتاجيته.

الخاتمة

يخلص البحث في الأخير إلى أنّ الانتاج الدلالي لنص استعاري رمزي مثل كتاب كليلة ودمنة هو أمر شائك ومعقد؛ لأنّ هذا النّص يبوح أكثر مما يقول، يوحي أكثر مما يصرّح، ولهذا تختلف دلالاته وتتعدد بحسب قرّائه، واختلاف خلفياتهم المعرفية والثقافية، وهذا الثراء الدلالي هو الذي منح لهذا النص الخلود والاستمرارية، حيث ظل القارئ يتفاعل معه إيجابيًّا، رغم اختلاف زمان تلقّيه ومكانه عبر شتّى الحقب الزمانية، بل وترجمته كذلك التي تمت إلى العديد من اللغات العالمية هي دليل قاطع على أهميته وخصوبته. وقد خرجنا من البحث بجملة من النتائج يتم اختصارها في النقاط التالية:

- لقد أبدع عبد الله بن المقفع في نقل كتاب كليلة ودمنة؛ مما جعل الكثير من الدارسين يعدونه عملًا إبداعيًّا أكثر منه ترجمة، حيث راعى الكتاب ذوق القارئ العربي والسياق الثقافي للعصر العباسي.
- أثّر الكتاب بشكل كبير على المتلقين في عهد ابن المقفع وبعده، حيث ظهرت عدة مؤلفاته تحاول النسج على منواله نذكر منها مثلًا كتاب سهل بن هارون (النمر والثعلب) وغيره، لم تصلنا.
- للقارئ في كتاب كليلة ودمنة دور مهم في تفكيك شفراته وكشف مضامينه المضمرة، عبر تفعيل كفاءته التأويلية، ومخزونه المعرفي والثقافي، ولهذا يختلف قرّاء هذا الكتاب ما بين القارئ العادي الذي يهدف إلى التسلية والمتعة فحسب، والقارئ النموذجي الذي يفعّل المعنى ويقف على مقاصد النص وغاياته غير المباشرة التي تهدف إلى تعليم الملوك كيف يحكمون ويسيرون، ولكنه يقدم الآراء والحكم على لسان الحيوانات، ولهذا يخلق كتاب كليلة ودمنة قرّاء جددًا في كل حقبة أو عصر، وهذه القراءات منحت التجدد والخلود للكتاب وصاحبه رغم أنه قتل في ريعان شبابه .
- شخصيات كليلة ودمنة ذات بعد استعاري ورمزي، فهي عبارة عن علامات يرتبط تأويلها بالقارئ المؤول والسياق السوسيو ثقافي المحيط بعملية التلقي، فالسياق له دور فاعل ومؤثر في عملية إنتاج الدلالة .

وسيبقى كتاب كليلة ودمنة خالدًا؛ لأنه يحرّك القرّاء وجمهور المتلقين في كل زمان ومكان؛ مما يبرز عبقرية عبد الله بن المقفع الذي يعد مثالًا حيًّا عن مثقف عبقري تلاقحت لديه الثقافتين العربية والفارسية، فأنتج بتمازجهما أثرًا، كان السبب في شهرته، وتداول اسمه عبر التاريخ، ولو أنه كان السبب في قتله كذلك.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021

المصادر والمراجع:

- آيت أوشان علي، الأدب والتواصل، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، ط1، الرباط / المغرب 2009
- أمين أحمد، ضحى الإسلام ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1 القاهرة 2012
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010
- بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي – مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر 2013
- بارط رولان، لذة النص، ترجمة: صفا فؤاد وسبحان الحسين، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/ المغرب 1988
- البستاني بطرس، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار مارون عبود، بيروت 1979
- بوبعيو بوجمعة ، آليات التأويل وتعددية القراءة، مقاربة نظرية نقدية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2009
- جوف فانسان، الأدب عند رولان بارت، ترجمة: بوعلي عبد الرحمن، دار الحوار للنشر والتوزيع ط1، اللاذقية/ سوريا 2004
- زيدان جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ،القاهرة2013
- قويدر بشار، الإصلاح السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية (من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع)،ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1990
- القيرواني، أبي علي الحسن بن رشيق (ت 456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج2، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، بيروت 1981
- كيليطو عبد الفتاح ، من شرفة ابن رشد، ط1، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء/ المغرب، 2009
- مفتاح محمد، مجهول البيان، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/المغرب 1990، ص89.
- ابن المقفع (روزبه بن داذويه) عبد الله ت142هـ ، كليلة ودمنة، ط1، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر 1997
- ابن المقفع، عبد الله، ت142هـ، كليلة ودمنة، مراجعة وتعليق: عرفان مطرجي، دار الفكر ط1، لبنان 2005
- هامون فيليب، سيميولوجيا الشخصيات، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام ، الرباط 1990
- هلال محمد غنيمي، الأدب المقارن، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1964

المجلات:

- أحمد محمد علي، ملامح الثقافة العربية الإسلامية في كتاب كليلة ودمنة، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 80، الجزء 3 ، دمشق ، سوريا2005
- محمد خرماش، فعل القراءة وإشكالية التلقي، مجلة علامات ، العدد 10، السنة 1998(موقع سعيد بنكراد تم الإطلاع بتاريخ : 12 ماي 2020 على الساعة 15:30 http : // saidbengrad.free.fr/al/n10

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.03

المرجع باللغة الأجنبية:

- Christoff Daniel ; Husserl ou le retoure aux choses, Editions Seghers, Pris 1966
- Dubois, Jean, Dictionnaire de linguistique ; Larousse, paris 1973
- Iser Wolfgang ; L'acte de lecteur, théorie de l'effet esthétique ; trad de l'allemand par Evelyne Szncer, édition P .Mardaga ; Bruxelles 1985
- Jaus Hans Robert ; Pour une esthétique de la réception ;trad De l'allemand par Claude Maillard ; Editions Gallimard ; Paris 1978

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة2021